معالم تجديد الخطاب الديني ومقاصد التوازن في القيم الإيمانية

د.هشـــام مُحمّد علي محمد التائب*
قسم الدّراسات الإسلامية، كلية التربيـة ، جامعة مصراتة ، ليبيا
البريد الإلكتروني: d.hesham1985@gmail.com
تاريخ الاستلام 29 / 3 / 2025م تاريخ القبول 15 / 10 / 2025م

Landmarks of Religious Discourse Renewal and Goals of Balance in Faith Values

Dr. Hisham Muhammad Ali Muhammad Al-Tayeb – Department of Islamic Studies – Faculty of Education, University of Misrata, Libya
Email: d.hesham1985@gmail.com

Abstract:
Modern studies today are diverse, and various branches of the humanities have benefited greatly from scientific, technical, and academic advances, with scholars, researchers, and critics striving to innovate in accordance with new structures. For a long time, studies on miracles have revolved around a single orbit, driven by continuous efforts and endeavors to research and explore the miraculous nature of this text and its source.
This research aims to address an important issue that afflicts the nation due to its weakness or scarcity. The renewal of religious discourse is not a task or project that is accomplished in a moment and then ends. Rather, it is a positive and interactive interaction between the ever-changing reality and the values and principles of the text (revelation) to confirm its repeated and continuous implications, which absorb reality and direct it towards the goals and objectives of Sharia in creation and succession. Consolidating the concept of religious discourse and the values of faith. Revealing religious discourse in promoting and employing values and highlighting their integration and comprehensiveness. Emphasizing the civilizational and pioneering role of the values of faith. Emphasizing the need for the nation to promote balance between the duality of body and soul and to observe the laws and standards of life.

الملخـــــــــص :
تنوّعت الدراسات الحداثية اليوم، وأخذت مختلف العلوم الإنسانية بشتى فروعها حظها الوافر من هذا التقدم العلمي والتقني والأكاديمي، حيث سعى العلماء والباحثون والنّقاد إلى محاولة التجديد وفق هياكل جديدة. فقد ظلّت الدّراسات الإعجازية لزمن

حقوق النشر © للمؤلف/للمؤلفين 2025. ينشر هذا البحث بموجب رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons (CC BY-NC 4.0)

طويل تدور في فلك واحد، يحذوه السعي والجهد المستمرين، في البحث والتنقيب عن مفاتيح الإعجاز في هذا النص ومكمنه.

ويهدف البحث إلى معالجة موضوعا مهما تعاني من ضعفه أو قلته الأمة، فتجديد الخطاب الديني ليس فعلاً أو مشروعاً ينجز في لحظة وينتهي كل شيء، بل هو تعاطٍ إيجابي تفاعلي بين الواقع الحي والمتغير باستمرار، وبين قيم ومبادئ النص (الوحي) لتأكيد نزوله المتكرر والمستمر ، والذي استوعب الواقع وتوجهه نحو أهداف ومقاصد الشريعة في الخلق والاستخلاف. التأصيل لمفهوم الخطاب الديني والقيم الإيمانية. الكشف عن الخطاب الديني في تعزيز القيم وتوظيفها وإبراز تكاملها وشمولها. التأكيد على الدور الحضاري والريادي للقيم الإيمانية. بيان حاجة الأمة لتعزيز الموازنة بين ثنائية الجسد والروح ومراعاتها لقوانين وسنن الحياة.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

جاءت هذه الدراسة للإجابة على الأسئلة الآتية: ماذا نعني بتجديد الخطاب الديني؟ وكيف يعمل هذا المنهج التجديدي على تعزيز مقاصد القيم الإيمانية؟ وما هي المعوقات المحتملة في طريق هذا المنهج ؟ وكيف يمكن تجاوزها أو التعامل معها؟ وما المكانة التي تحظى بها المقاصد الإيمانية في نصوص الشريعة المختلفة؟

منهج البحث:

كما هو معلوم أن طبيعة البحث، تحدد المنهج المتبع في البحث؛ ولأن البحث هو : (معالم تجديد الخطاب الديني ومقاصد التوازن في القيم الإيمانية) فإن المتبع في هذا البحث هو المنهج الوصفي الذي يرتبط بظاهرة معاصرة بقصد وصفها وتفسيرها وهي المنظومة التجديدية وكيفية تفعيل دورها من خلال ترسيخ وتعزيز القيم الإيمانية المستمدة من الكتاب والسنة. وقد استخدمت طريقة البحث والاستنباط لفهم النصوص ودراستها.

خطة البحث:

خطة البحث مقسمة إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، وجاءت مباحثه على النحو التالي: المبحث الأول: المفاهيم والمصطلحات ، والمبحث الثاني: الموازنة بين ثنائية الجسد والروح ومراعاتها لقوانين وسنن الحياة ،والمبحث الثالث: مصادر التجديد الفكري والحضاري "نماذج وقضايا".

الكلمات المفتاحية: الخطاب الديني - مقاصد التوازن- القيم الإيمانية

المقدمـــــــــة:

من أمعن النظر إلى معالم تجديد الخطاب الديني، وإلى بطون نصوص هذا الدين عموما يجد أن الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان، حيث إن تعاليمه الغراء تأخذ بأيدي معتنقيها إلى أرقى معاني الإنسانية قصد خدمة المكلف، وتأسيس مجتمع إسلامي متين القواعد والدعائم فصاغ الشارع الحكيم مصالح دنيوية تعتبر قنطرة العبور إلى المصالح الأخروية، التي لا طريق للوصول إليها إلا طريق اتباع أحكام الشرع القائمة على اتباع الأوامر واجتناب النواهي، هذه الأخيرة التي فيها جلب وتحقيق للمصالح.

المبحث الأول ـ المفاهيم والمصطلحات:

ماهية التجديد:

الفرع الأول ـ الدلالة اللغويـــــــــة:

يقول ابن منظور: "التجديد مصدر جدّد ويعني: تصيير الشيء جديدا، وجدّ الشيء، أي صار جديدا" (ابن منظور، 202/2). وهو خلاف القديم، وجدّد فلان الأمر وأجده، واستجده إذا أحدثه" (الفيومي، 1995، ص95)، ويعرفه سعيد بسطامي بقوله: " التجديد وجود شيء كان على حالة ما، ثم طرأ عليه ما غيره وأبلاه، فإذا أعيد إلى مثل حالته الأولى التي كان عليها قبل أن يصيبه البلى والتغيير كان ذلك تجديدا"(بسطامي، 2012، ص15). ومنه قوله – تعالى- : ﴿ **وإن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَٰبًا إِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ (سورة الرعد، الآية 5) ، وقوله – تعالى- : ﴿ **أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ (سورة ق، الآية 15) كما ورد في القرآن بمعنى: ما أحدث إنشاؤه ولم يكن موجودا، قال- تعالى- : ﴿ **إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ (سورة إبراهيم، الآية 22).

الفرع الثاني ــ الدلالة الاصطلاحية:

تعددت وتنوعت عبارات العلماء في ماهية التجديد ومن أبرز هذه التعاريف:

جاء في فيض القدير: " إحياء ما اندرس من العمل من الكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما"(المناوي، 1994، 357/2). وزاد على هذا التعريف محمد آبادي: "...وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات"(آبادي، 1415هـ، 391/11). وعند السيوطي: "المراد بتجديد الدين، تجديد هدايته، وبيان حقيقته وأحقيته، ونفي ما يعرض لأهله من البدع والغلو فيه، أو الفتور في إقامته، ومراعاة مصالح الخلق، وسنن الاجتماع والعمران في شريعته"(بسطامي، 2012، ص15). ويقول الغزالي: "وكل محاولة للبتر أو الإضافة

أو التحوير فهي خـــروج عن الإســـلام، وافتراء على الله، وافتيات على الناس، وتهجم على الحق بغير علم، وليس يقبل من أحد البتة أن يقول: هذا نص فات أوانه، أو هذا حكم انقضت أيامه، أو أن الحياة بلغت طورا يقض بترك كذا من الأحكام أو التجاوز عن كذا من الشرائع، فهذه كلها محاولات لهدم الإسلام وإعادة الجاهلية، وقد وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم آثار تفيد أن الله رفق بهذه الأمة من يجدد لها دينها.

فلنعلم أن تجديد الدّين لا يعني ارتكاب شيء من هذه المحاولات المتكررة، بل تجديد الدين يعني توضيح ما أبهم الجهل من تعاليمه، وتمكين ما زحزح التهاون من أمره، وحسن الربط بين أحكامه وبين ما تحدث الدين من أقضية، وتنزيل أحوال الحياة المتغايرة على مقتضيات القواعد العامة والمصالح المرسلة، ولم يفهم أحد من العلماء الأولين أو الآخرين أن تجديد الدين يعني: تسويغ البدع ومطاوعة الرغبات، وإتاحة العبث بالنصوص والأصول لكل متهجم"(الغزالي، 2017، ص138).

ماهية الخطاب الدينـــــــي:

الفرع الأول ـ الدلالة اللغوية:

الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام بين القوم، يقال: خاطبه في الأمر: حدّثه بشأنه، وتخاطبا تكالما وتحادثا قال تعالى: **[فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ]** (سورة ص، الآية 22)، والخطْب: الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب، ومنه قوله تعالى: **[قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ]** (سورة طه، الآية 93).

الفرع الثانـــــي ـ الدلالة الاصطلاحية:

الخطاب هو توجيه اللفظ المفيد إلى الغير، بحيث يسمعه ويفهمه، وقيل: إن الخطاب: توجيه الكلام نحو الغير للإفهام، أو للغير المتهيء للفهم (المرداوي، 2000، 95/1).

الدين ما يتديّن به الإنسان، من دينا وديانة: خضع وذلّ وأطاع، ويقال: ((دان له وله منه اقتص وبكذا اتخذه دينا وتعبد به فهو دين))(مصطفى وآخرون، 307/1).

ويطلق الخطاب الديني على معنيين: الأول: الخطاب الديني كل سلوك أو تصرف يكون الباعث عليه الانتماء إلى دين معين، سواء كان خطابا مسموعا أو مكتوبا أوكان ممارسة عملية. وهذا الإطلاق العام نجده في كتابات الغير مسلمين ظاهرا، ولذا فهم يعدون كل تصرف من المسلمين يكون الباعث عليه دينيا لونا من ألوان الخطاب الإسلامي.

المعنى الثاني: أن الخطاب الديني يراد به ما يصدر عن رجال الدين من أقوال أو نصائح أو مواقف سياسية من قضايا العصر ويكون مستندهم فيها إلى الدين الذي يدينون به"(السلمي، 2005، ص6).

ماهية القيم الإيمانية:

الفرع الأول ــ الدلالة اللغويـــــة:

القيم من القيمة، استقمته: ثمنته، واستقام: اعتدل (الفيروزآبادي، د.ن، 1487/1)، وقال ابن فارس: أصلها قَوَم القاف والواو والمقيم صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناس وربما استعير في غيرهم، والآخر على انتصاب أو عزم –قام قياماً (ابن فارس، 1971، 43/5). وتأتي بمعنى الاستقامة، فأمرٌ قيم أي مستقيم، قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (سورة الأنعام، الآية 162).أي: دين الملة المستقيمة، والملة القيمة: المعتدلة (ابن سيده، 2000، 593/6). وتأتي بمعنى الثبات: يقال: مالُ فلان، قيمة أي: ماله ثبات ودوام على الأمر (مصطفى وآخرون، (د.ت)، 768/2)، قال – تعالى- : ﴿ **وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** ﴾ (سورة هود، الآية 39). أي: دائم. والإيمانية هو التصديق، وأصل أمن أأمن بهمزتين لُينت الثانية وقلبت ياء كراهة اجتماعهما وقلبت الأولى هاء))(الرازي، 1995، 51).

الفرع الثاني ـ الدلالة الاصطلاحيـــــة:

تعتبر القيم الإيمانية من المفاهيم الشائعة في الحياة اليومية، ولا يوجد لهذا المصطلح تعريف واحد يتفق عليه جميع الباحثين، وذلك تبعا للمفكرين واتجاهاتهم، أو المجالات التي تناولها بالبحث الفلاسفة، وعلماء الاجتماع، والتربية، والنفس (الجلاد، 1408هـ، ص ص 7-11) ومن أبرز هذه التعاريف أن القيم الإيمانية هي: "تلك المعايير التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية، ودعا إليها الإسلام، وحث على الالتزام والتمسك بها، وأصبحت محل اعتقاد واتفاق واهتمام لدى المسلمين، إذ تمثل موجهات لحياتهم، ومرجعا لأحكامهم، إذ يحدد من خلالها المقبول وغير المقبول، والمستحسن والمستهجن، والمرغوب فيه وغير المرغوب فيه، من الأقوال، والأفعال، ومظاهر السلوك المختلفة(عبد العزيز، 2002، ص40). وعرفها محمود عطا: هي مجموعة من الأحكام المعيارية المتصلة بأمور واقعية، يشتهر بها الفرد من خلال تفاعله مع المواقف والخبرات المختلفة عبر عملية التعلم، وتتصف بثبات نسبي، وتشترط قبولا من جماعة اجتماعية معينة(عقل، 2001، ص47).

المبحث الثاني ــ الموازنة بين ثنائية الجسد والروح ومراعاتها لقوانين وسنن الحياة:

أقصد بخاصية التوازن للقيم الإسلامية هو: اعتدالها واتزانها وتوسطها بين الإفراط والتفريط، بمعنى أنها متوازنة في ذاتها، وتهدف إلى إرساء التوازن في الفرد والمجتمع، إن القيم الإيمانية بمجملها حاضرة بجلاء بالضبط والبيان والتصحيح، حيث تجمع بين الضبط والعدالة، وبين الواقعية والشمول، فهي متوازنة، أي: حكيمة غائية، فلا هي تجنح على الرضوخ لضغط الواقع بصورة نفعية، ولا هي تسعى إلى المثالية الكاملة غير الإنسانية، بل تعترف بكل مكونات الإنسان، بنقصانه وكمالاته، بتهيئته للخير، وبنزعاته لهوى النفس والنقصان.

وهذه الأمة أمة وسط واتزان، في منظومتها التشريعية وقيمها الأخلاقية والفكرية قال- تعالى- : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطا**﴾ (سورة البقرة، من الآية 143)، قال الطبري في تفسير هذه الآية: وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع، هو الوسط الذي بمعنى: هو الجزء الذي بين الطرفين، وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط، لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهيب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوساطها(الطبري، 2001، 628/2). ومن شواهد الأمر بالتوازن قوله صلى الله عليه وسلم: (هلك المتنطعون) قالها ثلاثا (النيسابوري د.ت)، 2055/4)، قال النووي: أي: المتعمّقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم(النووي، 437/7).

يوازن الإسلام بين المكوّن الروحي والمكون المادي الحسي في الإنسان، ويعترف بأهمية كليهما لتحقيق حياة متوازنة.

إن الإغراق في تفاصيل الجانب المادي والغفلة عن أهمية المكوّن الروحي هو سمة من سمات الحضارات المدنية المعاصرة؛ "ومن الغريب أن الإنسان الحديث قد استبعد من الحقيقة الواقعية كل عامل نفسي وروحي، وبنى لنفسه وسطا ماديا بحتا، غير أن هذا العالم لا يلائمه قطّ، بل نراه يصاب فيه بالانهيار، فالعالم الحديث يبدو لنا كالثوب المفرط في الضيق، ومما لا يقبله العقل أن يصبح الواقع الخارجي أضيق من أن يشمل

الإنسان في كليته، وألا يكون تركيبه متفقا مع تركيبنا من بعض الوجوه، فمن الحكمة إذن أن نعدل لعالم الروح الموضوعية نفسها لعالم المادة"(يالجن، 1987، ص58).

كما أن الإغراق في العامل الروحي وإنكار المكوّن المادي الحسي للإنسان هو سمة لبعض التدين المحرّف عند بعض العقائد كالنصرانية، قال تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا**﴾ (سورة الحديد، من الآية 27)، قال ابن عاشور: الراهب يمتنع من التزوج خيفة أن تشغله زوجه عن عبادته، ويمتنع عن مخالطة الأصحاب خشية أن يلهوه عن العبادة، ويترك لذائذ المآكل والملابس خشية أن يقع في اكتساب المال الحرام، ولأنهم أرادوا التشبه بعيسى عليه السلام في الزهد في الدنيا وترك التزوج، فلذلك قال الله- تعالى- : ﴿**ٱبْتَدَعُوهَا**﴾ أي: أحدثوها، فإن الابتداع الإتيان بالبدعة والبدع، وهو ما لم يكن معروفا، أي: أحدثوها بعد رسولهم، فإن البدعة ما كان محدثا بعد صاحب الشريعة" (ابن عاشور، 1997، 422/27).

أما الشريعة الإسلامية فتعترف بالإنسان وبجميع مكوناته، وتعترف كذلك بالتوازن في إشباعها، قال- تعالى- : ﴿ **وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ**﴾ (سورة القصص، من الآية 77).

التوازن بين مصالح الفرد ومصالح المجتمع:

توازن منظومة القيم الإسلامية بين مصالح الفرد ومصالح المجتمع، فلا تطغى الحرية الفردية على مصالح الأمة العامة، ولا تطغى مصالح الجماعة على مصالح الفرد، وهذا الاتزان والموازنة بينهما من محاسن التشريع الإسلامي، إن الناظر في الفلسفات الأخلاقية الكبرى سيرى بوضوح التمركز على أحجها دون الآخر، فإما تطرف في مصالح الفرد والحرية الفردية، أو إهدار لحقوقه لصالح رفاه المجتمع.

إن سمة التوازن هي تقويض للغلوّ والتطرف بشتى صوره وتمظهراته.

الموازنة بين ثنائية الجسد والروح تشمل كل المبادئ والقيم الإسلامية، ويمكن إجمالها في ثلاث نقاط:

1- النصوص الشرعية العامة: المتعلقة بترتيب الجزاء الأخروي عل القيم والمبادئ الإسلامية ثوابا وعقابا، والمفعّلة لاستحضار الرقابة الإلهية، وهذه النصوص كثيرة ومبثوثة في مصادر التشريع الإسلامي، من الكتاب والسنة وإجماعات العلماء والقواعد الفقهية، سواء من جهة الفرد أو من جهة الجماعة والدولة.

2- قوة الإلزام الذاتي: والوازع الداخلي لدى المسلم، المستمد من قداسة هذه القيم الإسلامية، وتعلقها بالعقيدة.

3- خصائص القيم وفرادة سماتها: وهي من أقوى ضمانات تطبيقها، من جهة موافقتها للفطرة الإنسانية وشمولها وثباتها وكمالها ومرونتها وواقعيتها. وبالتالي هذه الموازنة بين الجسد والروح هي التركيز على هذه المعاني السامية والأهداف النبيلة التي تكرم النوع البشري وتجعله خليفة لله في الأرض ليعمر هذا الكوكب مؤمنا بخالقه ومصدقا بلقاء سيده ومولاه ومجتهدا في الفضائل بعد الواجبات. فالوسطية تدور حول انتخاب الأسمى والأرقى والألذ والأشهى والأطيب من مفاهيم هذه الدعوة ومضامين البلاغ وبالتالي تأخذ بحسبانها انتخاب كل معنى رائق فتقدمه للمتلقي على طابق من الأدلة والبراهين التي لا يرقى إليها الشك (الريسوني، ص12).

وفي هذا الصدد - أيضًا - كلام جميل للإمام الشاطبي حيث قال -رحمه الله تعالى-: "فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلا إلى جهة طرف من الأطراف، فذلك في مقابلة واقع، أو متوقع في طرف آخر. فطرف التشديد -وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر- يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين. وطرف التخفيف -وعامة ما يكون في الترجي والترغيب والترخيص- يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحا، ومسلك الاعتدال واضحا، وهو الأصل الذي يرجع إليه، والمعقل الذي يلجأ إليه (الشاطبي، 2006، 167/2).

وهكذا يتضح لنا أثر الموازنة بين الجسد والروح في إعادة صياغة الإنسان الحضاري صياغة ربانية ينخرط الإنسان بكل كيانه وطاقاته في رفع البناء الذي أمره الله برفعه، على هدى من الله. فالقيم الإيمانية التي رسخها النبي -صلى الله عليه وسلم- في مجتمع المدينة هي التي استطاع بفضلها أن يواجه تبعات الحياة ومشاق السير في دروبها الوعرة... فالإسلام يعتمد في بنائه للمجتمع على أفراد أقوياء النفوس ممتلئين بالعزم والقدرة على الثبات، فسنة البناء والتغيير تمر من خلال جهد البشر وتفاعلاتهم، ولا يكون فيها مغالاة أو تعقيدات، بل وسطية واعتدال تراعي مطالب الجسد ومطالب الروح، وتحاول أن توازن بينهما. لذا يقول ابن القيم: ومن تأمل الشريعة في مصادرها وموارداها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما؟ وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه، وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت، ولهذا كان الإيمان واجب القلب على الدوام،

والإسلام واجب الجوارح في بعض الأحيان، فمركب الإيمان القلب، ومركب الإسلام الجوارح(ابن القيم، 1996، 710/3).

إن المجتمع الذي يحترم القيم الإيمانية ويعطي لها اهتماما، هو مجتمع ناضج وفاهم لدوره في الحياة، وقد سلك الاتجاه الصحيح نحو التقدم والتحضر، لأن القيم الإيمانية لها تأثير على بنية المجتمع من حيث التفكير والفهم والمعاملة والعلاقات الإنسانية، وإننا نرى أن المجتمعات المحرومة من القيم الإيمانية منحطة ثقافيا وأخلاقيا، حتى وإن كانت متطورة من الناحية العلمية لأن العلم بدون إيمان كالجسد بدون روح.

وهكذا فإن القول بالموازاة بين فعل الجسد وفعل النفس أو بتبادل التأثير بينهما كليهما قول غير صالح، ومع ذلك فالعقل والجسد يصبحان في الفعل أمرا واحدا. فعندما أتناول كتابا من على مكتبي يكون فعلي هذا غير قابل للتجزئة، ويستحيل أن نقيم حدا فاصلا بين نصيب الجسد ونصيب العقل في هذا الفعل، بل ينبغي أن يرد عملهما بوجه ما إلى نظام واحد بعينه. وهما في نظر القرآن ينتسبان فعلا إلى نظام(إقبال، 2021، ص ص145-146).

المبحث الثالث ـ مصادر التجديد الفكري والحضاري.

يعد محمد إقبال من مجددي القرن العشرين، حيث دعا إلى تجديد الفكر الديني وبناء فلسفة إسلامية باستثمار الثقافة الإسلامية الأصيلة حيث جاء في مقدمة كتابه تجديد التفكير الدين: "ولقد حاولت في هذه المحاضرات التي أعددتها... بأن أحاول بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناء جديدا، آخذا بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام، إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة" (الميلاد، 2009، ص6).

إن كتاب تجديد التفكير الديني في الإسلام، يمثل التقاء مناقشات فكرية وفلسفية بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة الأوروبية الحديثة واللتين انقطعت الصلة بينهما من بعد فلسفة ابن رشد، حيث مثلت فلسفته الفلسفات الثلاث الكبرى، وهي: اليونانية التي تنتمي إلى العصر القديم، والإسلامية التي تنتمي إلى العصر الوسيط، والأوروبية التي تنتمي إلى العصر الحديث. وبقدر ما ينتمي فكر محمد إقبال إلى الفلسفة الإسلامية، بقدر ما ينتمي إلى الفلسفة الأوروبية الحديثة، الأمر الذي أهله ليكون فكرا تفاعليا منفتحا على هاتين الفلسفتين، فقد اعتنى إقبال كثيرا بمناقشة ومقولة المفكرين والفلاسفة الأوربيين كما لو أنه موجها أفكاره لهم في كتابه المذكور(الميلاد، 2009، ص11).

لذلك يمكن القول بكل اطمئنان: إن التجديد في بعده الفكري هو نشاط عقلي لا يتوقف، فهو دائم القيام بعملية النقد والمدارسة والنظر باستمرار في التراث الفكري، والمعارف الإنسانية والتجارب التاريخية، قصد تصحيحها والإفادة منها، لتلائم تطورات الواقع الإنساني الجديد. لأن الفكر يمكن أن يموت أو يبلى متى توقف عن التجديد والإبداع(ابن نبي، 1992، ص ص 146-152).

إن الدين باعتباره وحياً إلهياً لا يجوز فيه الزيادة ولا التغيير أو التبديل أو النسخ أو التعطيل بحجة فساد العصر، وما أشبه ذلك مما من شأنه أن يحرف الكلم عن مواضعه. إن مرجعية الإحياء والبحث الحضاري من جديد تكمن في مبادئ الإسلام وقيمه، يقول محمد البهي في تقويمه لرؤية محمد إقبال في تجديد الفكر الديني: "كان إقبال دقيقاً عندما عبر عن حركته الفكرية بـ"إعادة بناء الفكر الديني" في الإسلام، دون التعبير بـ"الإصلاح الديني"، لأن أية محاولة إنسانية تدور في محيط الإسلام، لا تتعلق بتعديل مبادئه طالما أن مصدره هو القرآن الذي له صفة الجزم والتأكيد والأبدية، وأية حركة إصلاحية في الإسلام بعد ذلك هي إذن في دائرة الفكر الإسلامي وحوله، وفي دائرة أفهام المسلمين وتفسيرهم لتعاليمه، وليس هناك تطور للإسلام نفسه، لأن الوحي به قد انتهى على عهد الرسول (عليه السلام) كما ختمت برسالته الرسالة الإلهية، ولا يترقب إذن أن يكون هناك إصلاح ديني في الإسلام على نحو الذي قام بصنعه مارتن لوثر في المسيحية"(البهي، 1991، ص340).

اهتم إقبال بمنطلقات التجديد للفكر الإسلامي، إعمالا بتطوير الزمن وامتثالا بتغيير الناس، ومن هذا المنطلق اعتبر مصادر التجديد هي التي تقوم عليها الشريعة، متمثلة فيما يلي:

أ ـ القـــرآن الكريم: ويعتبر الأصل الأول للشريعة الإسلامية، ويرى إقبال أنه يبعث في نفس الإنسان أسمى مراتب الشعور بما بينه وبين الله، وبينه وبين الكون من صلات. وليس من شك في أن القرآن يقرر بعض المبادئ والأحكام العامة في التشريع، وبخاصة فيما يتعلق بنظام الأسرة التي هي الركن الركين للحياة الاجتماعية(إقبال، 2021، ص227). ويؤكد الجابري: أن القرآن بوصفه معاصرا لنفسه ومعاصرا لنا... فالظاهرة القرآنية، وإن كانت في جوهرها تجربة روحية، نبوة ورسالة، فهي في انتمائها اللغوي والاجتماعي والثقافي ظاهرة عربي، لا على مستوى الإرسال ولا على مستوى التلقي (الجابري، 2007، ص20).

وبهذه النظرة الجوهرية في التعاليم الأساسية للقرآن، ينبغي للمذهب العقلي الحديث أن يتناول البحث في نظمنا القائمة، فليس في استطاعة أمة أن تتنكر لماضيها تنكرا تاما... ولنعد إلى أسس المبادئ التشريعية في القرآن. ومن الواضح تمام الوضوح أن هذه المبادئ الرحبة الواسعة أبعد ما تكون عن سد الطريق على التفكير الإنساني والنشاط التشريعي، تعمل في حقيقة الأمر كمنبه للفكر الإنساني (إقبال، 2021، ص ص 229-230).

ب ــ الحديث: إن أحاديث الرسول المصطفى هي الأصل الثاني العظيم للشريعة المحمدية... على أنه لا يمكن أن ينكر أن رجال الحديث قد أدوا أجل خدمة للشريعة الإسلامية بنزوعهم عن التفكير النظري المجرد إلى مراعاة ما للأحوال الواقعة من شأن، ولو أننا واصلنا دراسة ما كتب عن الحديث، وعنينا بتقصي ما تدل عليه الآثار من الروح، التي كان يفسر النبي بها رسالته، فقد تنجلي هذه الدراسة عن فهم قيمة الحياة في مبادئ التشريع التي صرح بها القرآن. وهذا الفهم وحده هو الذي يعنينا عندما نحاول تأويل أصول التشريع تأويلا جديدا(إقبال، 2021، ص238).

ج ـ الإجمـــــاع: وهو في نظر إقبال قد يكون من أهم الأفكار التشريعية في الإسلام، ومن الغريب أن يشتد الخلاف حول هذه الفكرة المهمة في صدر الإسلام، وأثارت الكثير من الجدل العلمي، ظلت تقريبا مجرد فكرة لا غير، وقلما اتخذت شكل نظام دائر في أي بلد من بلاد الإسلام. ولعل تحول الإجماع إلى نظام تشريعي ثابت كان يتعارض مع المصالح السياسية للحكم المطلق الذي نشأ في الإسلام، بعد عهد الخليفة الرابع مباشرة، وأحسب أن خلفاء بني أمية وبني العباس رأوا أن مصلحتهم تتحقق بتفويض الاجتهاد إلى أفراد من المجتهدين، أكثر مما تتحقق بتشجيع تأليف جماعة دائمة من المجتهدين، ربما تصبح صعبة المراس عليهم(إقبال، 2021، ص239).

د ــ القـــياس: يـــرى محمد إقبال أن فقهاء الحنفية، ونظرًا لاختلاف الأصول الاجتماعية والزراعية السائدة في البلاد التي فتحها الإسلام، لم يجدوا بصفة عامة الحالات المدونة في كتب السنة، شيئا يهتدون به، أو وجدوا من ذلك شيئا قليلا، فلم يكن أمامهم من سبيل سوى تحكيم العقل في الفتيا، وأوحت الأحوال التي استجدت في العراق بتطبيق منطق أرسطو، وإن كان قد ثبت أن هذا التطبيق كان بالغ الضرر في المراحل الأولى لتطور التشريع(إقبال، 2021، ص243). . فسير الحياة المتشابك المعقد لا يمكن أن يخضع لقواعد مقررة جامدة تستنبط استنباطا منطقيا من أفكار عامة معنية،

ويبدو أنه لم يكن هناك مفر من استخدام القياس كما فعل أبوحنيفة، وهو مذهب إذا حسن فهمه وتطبيقه كما يقول الشافعي مرادفا للاجتهاد (الشافعي، 2009، 476/1).

هـ ـ العقـــــل والاجتهاد : لقد أولـــى محمد إقبال أهمية كبيرة للعقل البشري في فهم حقائق هذا الكون، معتمدا في ذلك على ما جاء به القرآن الكريم، فالآيات التي دعت إلى التفكر والتعقل والتدبر والنظـــر كثيرة، فيها إشارة أن الله تعالى منح الإنسان موهبة ذهنية عقلية مكّنته ليكوّن تصورات للأشياء وقدرة على فهمها. ويشير محمد إقبال إلى إيقاظ الروح التجريبية في ومن لا يعبأ بعالم المرئيات ليكد حقيقة هامة هي أسبقية الواقع على النظر العقلي المجرد وليس العكس، فليس انخراطنا في زحمة الواقع المتغير إلا الأساس الضروري لتدريبنا على النظر العقلي، وتجريد المفاهيم من خلال الواقع المتغير من حال إلى حال. أما الاجتهاد عند إقبال فمظهر من مظاهر استخدام العقل في الإسلام، إذ من خلاله يستطيع المسلم وبوحي من دينه أن يكيف نفسه عبر فهمه لمسار الحياة حيث يقول: الاجتهاد هو أساس الحركة في الإسلام بما هو دين يوفق في وجوده، بين الدوام والتغيير (أبوعاذرة، 1985، ص274).

وقد حسم أركون ثوابت الخطاب الإسلامي منذ البداية معتبرا أن هذا الخطاب الإسلامي المعاصر هو خطاب جماعي موجود ومبثوث في مختلف اللغات الإسلامية، ويعود ظهوره إلى فترة ما بعد الناصرية (1970)... وتدور محاور هذا الخطاب حول فكرة التوحيد، والإقرار بالنبوة واعتبار القرآن هو خاتم الرسالات، وكذا اعتبار السيرة النبوية وتجربة المدينة نموذجا أعلى ينبغي تقليده من دون موارية، هذا من دون إغفال الدور الريادي للصحابة وتصديقهم من دون تردد... وهذه الحقيقة ينبغي أن تتجسد في الدولة الإسلامية المعاصرة من دون تحريف(أركون، 1990، ص ص64-65).

الخاتمـــــــة:

- إن تحديات الحياة العصرية للإسلام تحديات متعددة الجوانب، ومتنوعة الوجوه، فهي تحديات فكرية، وثقافية، وتاريخية، وعقائدية، وفلسفية، وعلمية، وجمالية، وخلقية، من يتتبع فكر محمد إقبال يستنتج أن هناك فكرا إسلاميا حديثا مبني على الإصلاح بصيغه المتعددة.

- تجديد الخطاب الديني هي نظرة جديدة لم تكن معهودة من قبل، رسمت معالم القراءة المفتوحة والمنفتحة للتراث الإسلامي.

- إن الخروج من نفق الجمود الفكري يوجب بالضرورة فتح باب الاجتهاد، لأن الإسلام ليس عقيدة جامدة، غير قابلة للتطوير، بل هو حالة انبعاث وتجديد للحياة استنادا إلى الفكر.
- يؤكد إقبال أن: القول بالموازاة بين فعل الجسد وفعل النفس أو بتبادل التأثير بينهما قول غير صالح، ومع ذلك فإن العقل والجسد يصبحان في الفعل أمرا واحدا.

- إن الدين باعتباره وحياً إلهياً لا يجوز فيه الزيادة ولا التغيير أو التبديل أو النسخ أو التعطيل بحجة فساد العصر، وما أشبه ذلك مما من شأنه أن يحرف الكلم عن مواضعه.
- إن مرجعية الإحياء والبحث الحضاري من جديد تكمن في مبادئ الإسلام وقيمه.

بيان تضارب المصالح

يُقر المؤلف بعدم وجود أي تضارب مالي أو علاقات شخصية معروفة قد تؤثر على العمل المذكور في هذه الورقة.

المراجع:

القرآن الكريم، برواية الإمام قالون عن الإمام نافع.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر.. بدائع الفوائد(علي بن محمد العمران، محقق). دار علم الفوائد للنشر والتوزيع.

ابن سيده، عبدالحميد هنداوي. (2000). المحكم والمحيط الأعظم(تحقيق:عبدالحميد هنداوي). دار الكتب العلمية.

ابن عاشور، محمد الطاهر. (1984). التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر.

ابن فارس، أبوالحسين أحمد بن زكريا. (1971). معجم مقاييس اللغة(عبدالسلام محمد هارون، محقق وضبط)(ط2). شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم. (1414). لسان العرب. دار صادر.

ابن نبي، مالك بن الحاج عمر. (1992). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي: فصل الأفكار الميتة والأفكار المميتة. دار الفكر.

أبوعاذرة، عطية سليمان. (1985). مشكلتا الوجود والمعرفة في الفكر الإسلامي الحديث. دار الحداثة.

أركون، محمد. (1990). الفكر الإسلامي: قراءة علمية(هاشم صالح، مترجم). دار الساقي.

إقبال، محمد. (2021). تجديد التفكير الديني في الإسلام(عباس محمود، مترجم. أقلام عربية للنشر والتوزيع.

بسطامي، محمد سعيد. (2012). مفهوم تجديد الدين. مركز التأصيل للدراسات والبحوث.

البهي، محمد. (1991). الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي(ط7). دار الفكر.

الجابري، محمد عابد. (2007). مدخل إلى القرآن الكريم: الجزء الأول في التعريف بالقرآن(ط2). دار النشر المغربية.
الجلاد، ماجد زكي. (1408هـ). القيم الإسلامية والتربية. مكتبة الحلبي.
الرازي، محمد بن أبي بكر. (1995). مختار الصحاح. مكتبة لبنان ناشرون.
الريسوني، علي بن أحمد بن الأمين. فقه الدعوة الإسلامية في الغرب ووجوب تجديدها على الحكمة والوسطية والاعتدال.الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات.
السلمي، عياض بن نامي. (2005). أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله. دار التدمرية.
الشاطبي، أبوإسحاق. (2006). الموافقات في أصول الشريعة(وعليه شرح جليل لتحرير دعاويه وكشف مراميه، وتخريج أحاديثه، ونقد آرائه نقدًا علميًّا بقلم الأستاذ الكبير شيخ علماء دمياط الشيخ عبدالله دراز). دار الحديث.
الشافعي، محمد بن إدريس. (2009). الرسالة(أحمد محمد شاكر، محقق). دار العقيدة.
الطبري، محمد بن جرير. (2001). تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)(محمود محمد شاكر، محقق وخرّج أحاديثه؛ أحمد محمد شاكر، راجع أحاديثه)(ط2). مكتبة ابن تيمية.
عبد العزيز،حميدة. (1987). القيم الأخلاقية في ضوء نمط التعليم في الإسلام.
عقل، محمود عطا حسين. (2001). القيم السلوكية. مكتب التربية العملي لدول الخليج.
الغزالي، محمد. (2017). كيف نفهم الإسلام. دار نهضة مصر.
الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. (د.ت). القاموس المحيط. دار الجيل.
الفيومي، أحمد بن محمد المقري. (1995). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. المكتبة العلمية.
المرداوي، علي بن سليمان. (2000). التحبير شرح التحرير في أصول الفقه(د.عبدالرحمن الجبرين ود.عوض القرني ود.أحمد السرح(محققون). مكتبة الرشيد.
مصطفى، إبراهيم، والزيات، أحمد، وعبد القادر، حامد، والنجار، محمد. (د.ت). المعجم الوسيط. دار الدعوة.
المناوي، زين الدين محمد بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي. (1356هـ). فيض القدير شرح الجامع الصغير. المكتبة التجارية الكبرى.
الميلاد، زكي. (2000). محمد إقبال وتجديد التفكير الديني في الإسلام.دراسات حضارية.
النووي، محيي الدين يحيى بن شرف. دقائق المنهاج(إياد أحمد الغوج، محقق). دار ابن حزم.
النيسابوري، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري(د.ت). صحيح مسلم، بشرح النووي، للإمام يحيى بن شرف الشافعي(عبدالله أحمد أبوزينة، محقق ومشرف). كتاب الشعب.
يالجن، مقداد. (1987). طريق السعادة(نقلاً عن الدكتور ألكسيس كارل. دار النشر).